أثر الوقف الإسلاميّ في الحياة العلميّة بالمدينة المنورة

إعداد:
د. سحر بنت عبدالرحمن مفتي الصديقيّ

نُشرَ هذا الكتاب ضمن إصدارات مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة ـ المملكة العربية السعودية

وَحَمَلَ الكتاب رقم (٧) من إصدارات المركز، الطبعة الأولى عام ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م

قام بإعداد ومراجعة الملخص العلميّ للدراسة إدارة التحرير بمجلة وقف

تعريف عامّ بالمؤلفة:

هي شخصيةٌ سعوديةٌ بارزةٌ في الأوساط الأكاديميّة، وباحثةٌ في العلوم الشرعية واللغوية والتراث، وتعملُ في قسم سياسات واقتصاديات التعليم بجامعة طيبة في المدينة المنورة، كما عملت نائبة قسم أصول التربية ووكيلة عمادة شؤون الطالبات سابقًا، ولها إسهامات في الدراسات الإسلامية واللغوية والتاريخية والاجتماعية، ومؤلفات، وتُعرف بعنايتها بتحقيق التراث الإسلامي، ولها إسهامات علمية في مجالها، خصوصًا في الوقف الإسلامي وأثره في الحياة العلمية، مع تركيزها على المدينة المنورة في سياقها التاريخيّ والعلميّ والتعليم.

ومن المؤلفات التي طُبِعَتْ لها، «أثر الوقف الإسلاميّ في الحياة العلمية بالمدينة المنورة» الذي نشره مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة في المملكة العربية السعودية عام ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م، ويُعدّ من أبرز أعمالها، ويتناول إسهام الوقف في دعم التعليم والمعرفة في المدينة المنورة، وكذا وقف العلماء والمدرّسين في المدينة المنورة، وهو دراسة تاريخيّة تُبرز مكانة الأوقاف في دعم العلماء والتعليم في العصور الماضية. كما

تُظهر أيضًا إسهامات باسمها في موضوعات أخرى ذات صلة بهذا المجال، منها: «المكتبات الوقفية بالمدينة المنورة في العهد السعوديّ والعثمانيّ»، و«مشكلات التعليم الموازي في جامعة طيبة من وجهة نظر الطالبات»، وتُبرِزُ هذه المؤلفات امتداد اهتمامها إلى قضايا التعليم والبحث في مؤسسات التعليم العالي.

الهدف العام للمادة العلمية:

تهدف المادة العلمية للكتاب إلى دراسة إسهام الوقف الإسلامي في دعم الحياة العلمية بالمدينة المنورة على مرّ العصور، مع التركيز على الأبعاد التاريخية والاجتماعية والتعليمية لذلك، وكيف كان للوقف أثرٌ في استدامة حركة العلم ونشر المعرفة، فضلًا عن حفظ التراث الثقافي والفكري للمدينة المنورة. كما تهدف المادة إلى إبراز الصلة الوثيقة بين الوقف والمؤسسات العلمية، مثل المدارس والمكتبات وحلقات العلم، وتأثيرها على العلماء والطلاب والبحث العلمي.

وتسعى المادة كما أوضحت الباحثة إلى تقديم رؤيةٍ شاملةٍ حول الوقف الإسلامي؛ لكونه رافدًا حضاريًا وثقافيًا واقتصاديًا يضمن استمرار التعليم ونشر المعرفة، كما يُظهر البحث أنّ الوقف لم يكن مجرّد عملٍ خيريٍ أو اقتصاديٍّ فقط، بل كان له أثرٌ مباشرٌ في دعم الحياة العلمية والمجتمع الأكاديمي بالمدينة المنورة. من خلال دراسة الوقف عبر مختلف العصور الإسلامية، فيتمكّن الدارس لهذا الكتاب من فهم كيف أسهم الوقف في توفير الموارد المادية اللازمة لتعليم الطلاب ورعاية العلماء وصيانة المكتبات وتمويل حلقات العلم والمساجد، بما يعكس تكامل الأبعاد الدينية والاجتماعية والتعليمية للوقف في المجتمع الإسلامي.

كما تهدف المادة إلى تسليط الضوء على المكتبات الوقفية والمخطوطات العلمية وإسهامها في حفظ التراث العلمي الإسلامي ونقله للأجيال اللاحقة، وكذا إلى إبراز الأثر التراكميّ للوقف في جعل المدينة المنورة مركزًا علميًا بارزًا يجذب العلماء والطلاب من مختلف أنحاء العالم الإسلامي. ومن خلال تحليل الأمثلة التاريخية والوقفيات العملية التي ذكرتها الباحثة يتّضح أنّ الوقف أسهم في توسيع نطاق التعليم

الشرعيّ واللغوي والفكري، وإيجاد بيئة تعليمية مستدامة ونافعة، كما يمكّنُ العلماء من التفرّغ للتدريس والتأليف دون حدوث قلق بشأن مواردهم المعيشيّة.

كما تهدف المادة العلمية إلى فهم التحدّيات التي واجهت الوقف العلمي، مثل ضعف الإدارة أحيانًا أو عدم تجديد بعض الأوقاف بما يتناسب مع احتياجات العصر الحديث، وتقديم مقترحات لتطوير إدارة الأوقاف العلمية بما يضمن استمرار أثرها في دعم التعليم والبحث العلمي. وتلقي المادة الضوء على ضرورة الاستفادة من الأوقاف في العصر الحديث لتطوير المؤسسات التعليمية والمكتبات والمراكز البحثية، وربط الوقف بالتطور العلميّ والتقنيّ المعاصر بما يحافظ على أثره الحيويّ في المجتمع.

وأخيرًا تهدف هذه المادة إلى تعزيز الوعي بأهمية الوقف الإسلامي بكونه أداةً حضاريةً وثقافيةً يمكن من خلالها دعم التعليم والبحث العلمي ونشر المعرفة، وإبراز أثره في استمرار الحياة العلمية في المدينة المنورة، بل يشكّل الوقف نموذجًا يُحتذى به في ربط القيم الدينية والخيرية بالنهضة التعليمية والعلمية، وتوفير بيئةٍ تعليمية مستدامة تُسهم في نهضة المجتمع العلميّ والثقافيّ في المدينة المنورة.

الكلمات المفتاحية:

الوقف الإسلاميّ – الحياة العلمية – المدينة المنورة – المؤسسات التعليمية – الوقف والتنمية.

أهمية المادة العلمية:

يُعدّ الوقف الإسلاميّ من أبرز الظواهر الاجتماعية والاقتصادية التي كان لها أثرٌ جوهريٌّ في تاريخ الحضارة الإسلامية، خاصّة في مجال العلم والتعليم. وقد ركزت الباحثة في بحثها على دراسة أثر الوقف الإسلامي في الحياة العلمية بالمدينة المنورة؛ بكونها واحدة من أبرز المدن العلمية في التاريخ الإسلامي، لما تحمله من قيمةٍ دينيةٍ وثقافيّةٍ وعلميّةٍ كبيرةٍ. وتكمن أهمية هذه المادة العلمية في عدّة مجالات رئيسة، تتراوح بين الأبعاد: التاريخيّ والتعليميّ والاجتماعيّ والتنمويّ، ويمكن توضيحها كما يلي:

أولًا: إبراز البعد التاريخيّ للوقف العلميّ، فالباحثة تقدّم وصفًا تفصيليًا لتطور الوقف في المدينة المنورة منذ العصور الإسلامية المبكرة حتى العصر الحديث من خلال دراسة الوقف في المدينة المنورة، فيتّضح كيف أسهمت الأوقاف في إنشاء المدارس والكتاتيب والمكتبات، وكذلك دعم العلماء وطلبة العلم. وهذا العنصر التاريخيّ مهمّ؛ لأنه يربط بين التراث الإسلاميّ وأثر الوقف في استمرار العلم ونشره، مما يوضّح للقارئ قيمة الوقف ليس فقط في المعاملة المالية، بل بكونه أداةً حضاريةً أسهمت في بناء المجتمع العلميّ.

ثانيًا: توضيح الأثر التعليميّ للوقف؛ فالباحثة تذكرُ أنّ الوقف الإسلاميّ لم يقتصر على المجال الاقتصاديّ فقط، بل كان داعمًا مباشرًا للعملية التعليمية. وقد أسهم الوقف في توفير الموارد اللازمة لتعليم القرآن الكريم والعلوم الشرعية والعلمية الأخرى، كما ساعد في صيانة المؤسسات التعليمية واستدامتها. وهذا يبرز أهمية الوقف بكونه رافدًا دائمًا للعملية التعليمية، ويعطي صورةً واضحةً عن كيفية استمرار التعليم في المدينة المنورة عبر العصور.

ثالثًا: تتجلى أهمية الوقف من خلال هذا البحث في دعم العلماء وطلبة العلم. ومن أبرز ما يميز ما طرحته الباحثة أنه يوضّح أنّ الوقف كان يخصّص أموالًا لدعم العلماء في المسجد النبويّ والمدارس المرتبطة به، وكذلك توفير منحٍ تعليميةٍ للطلاب المحتاجين. وهذه الأهمية العملية للوقف تتجاوز العنصر الماليّ لتصل إلى إيجاد بيئةٍ علميةٍ محفزةٍ على البحث والمعرفة، مما يعكس الصلة التكامليّة بين الوقف والعمل العلميّ.

رابعًا: في البعد الاجتماعيّ والتنمويّ للوقف، يوضّح البحث أنّ الوقف لم يكن مجرّد وسيلةٍ تعليميةٍ، بل كان أيضًا أداةً للتنمية المجتمعية من خلال دعم العلماء والمدارس والمكتبات، وقد أسهم في رفع مستوى الثقافة والمعرفة لدى سكان المدينة، مما يعزّز الانتماء الدينيّ والاجتماعيّ ويحقّق الاستقرار؛ فالوقف الإسلاميّ كان أحد أبرز وسائل التنمية المستدامة في المجتمع الإسلامي التقليدي.

خامسًا: ربط الوقف بالاستدامة العلمية. ترى الباحثة أنّ الوقف يمثّل نموذجًا ناجحًا للاستدامة التعليمية، ويضمن استمرار دعم المؤسسات التعليمية والعلماء عبر أجيالٍ متعاقبةٍ. وهذه الرؤية الإستراتيجية تُظهر قيمة الوقف في الحفاظ على المعرفة ونقلها، ممّا يجعل البحث مهمًّا ليس فقط لدراسة التاريخ، بل لفهم كيفية توظيف الوقف في دعم التعليم والبحث العلميّ في العصر الحديث.

سادسًا: أهمية البحث للمؤسسات العلمية الحديثة: توضّح المادة العلمية للكتاب كيف يمكن الاستفادة من تجربة الوقف في المدينة المنورة بكونه نموذجًا لتطوير أوقافٍ حديثةٍ تدعم الجامعات والمعاهد ومراكز البحث العلميّ. كما أسهم البحث في تقديم قاعدةٍ معرفيّة تساعد الباحثين وصانعي القرار على فهم الصلة بين الوقف والتنمية العلمية، وكيف يمكن توظيف الموارد الوقفية لدعم الابتكار والمعرفة في المجتمع المعاصر.

أخيرًا: في إثراء الدراسات الإسلامية والاجتماعية البحث يثري المكتبة الأكاديمية بمجموعة من البيانات التاريخية والتحليلية، ويقدم نموذجًا عمليًا لكيفية دراسة أثر الظواهر الاقتصادية على الحياة العلمية والاجتماعية. ويتيح للدارسين والباحثين إمكان الربط بين الوقف الإسلاميّ والتنمية العلمية والثقافية، ممّا يجعله المادّة الأساس لأيّة دراسةٍ تبحث في الصلة بين الدين والعلوم والتنشئة الاجتماعية.

وباختصارٍ، تكمن أهمية المادة العلمية في بحث «سحر بنت عبدالرحمن مفتي الصديقي» في تقديم رؤيةٍ شاملةٍ ومتعمّقةٍ لإسهام الوقف الإسلاميّ في دعم الحياة العلمية بالمدينة المنورة، مع إبراز قيمته التاريخية والتعليمية والاجتماعية والتنموية، وربطه بالاستدامة العلمية الحديثة، ممّا يجعل البحث وثيقةً مرجعيّة بالغة الأهمّيّة لدراسة التراث الإسلاميّ وتوظيفه في خدمة التعليم والمجتمع.

أبرز موضوعات المادة العلمية:

الفصل الأول: الوقف نشأته وتطوره: يبدأ الفصل بتعريف الباحثة للوقف لغةً واصطلاحًا، وتُبيّن المقصود به من الشريعة الإسلامية، ثمّ نشأة الوقف وتطوّره في

التاريخ الإسلاميّ، مِن أولى الأوقاف التي أُسّست في عهد الخلفاء الراشدين حتى تطوّره في العصور الأموية والعباسية، بتنظيمه والحكم فيه حفاظًا عليه من الضياع، أما في العصر الفاطميّ فقد شهد توسّعًا في الأعمال بالصرف على المساجد والمؤسسات الخيرية، وقد بدأ الوقف على مؤسساتٍ تعليميةٍ بتأسيس دُور العلم وتقديم منحٍ دراسيةٍ، ويُموِّن المعلمين والطلاب، ويمدّ شبكةً علميةً واسعةً في المدن مثل بغداد والشام على مدى عهود الدول. فيها كما انتشرت الأوقاف انتشارًا عظيمًا في عهد الدولة المملوكية الأولى، حتى شملت أراضي كثيرة في مصر الإسلامية، واضطرّت إلى أن تُنشئ للأوقاف ثلاثة دواوين: ديوان أحباس المساجد، وديوان الأوقاف الأهلية، وديوان أحباس الحرمين الشريفين، حتّى امتدّت الأوقاف إلى عهد الخلافة العثمانية، وتأسّست وزارة الأوقاف، وأصدرت الحكومة من البرلمان قانونًا يُنظم أمور الوقف بعد سقوط الخلافة العثمانية. أما عن أنواع الوقف وأهدافه، فتستعرض الباحثة التفصيلات التقليدية، ما بين الأوقاف المضبوطة التي تُديرها وزارة الأوقاف، والأوقافٍ الملحقة والأوقاف المستثناة، وأضافت الباحثة ظهور نوعين من الوقف: الوقف الصحيح والوقف غير الصحيح، مع التأكيد على الوقف العلميّ أو التعليميّ بكونه نوعًا وظيفيًّا له أثرٌ واضحٌ في نشر التعليم وتمويل المدارس وبناء المكتبات.

الفصل الثاني: أثر الوقف على العلم والتعليم في تراثنا: تبيّن الباحثة كيف مكّن الوقف العلماء من التفرّغ للبحث والتعليم في مجالات الدين والطبّ وعلم الفلك وغيرها، دون قلق على مواردهم المالية. حيث أسهم الوقف في دعم الأجور والمنح الدراسيّة، والنفقات الكبيرة في التعليم والحصول على الكتب ونفقات السفر والإقامة وغيرها، فشجّع ذلك كل الفئات مهما كان المستوى المعيشي لها على التزوّد من العلم والمعرفة، سواء في المسجد أم في المدارس، والكتاب بمثابة اللائحة الأساسية للمؤسسة التعليمية، كما كفل الوقف للدعاة والفقهاء فرص العيش الكريم في: الجوامع والمساجد والكتاتيب والربط والخوانق والزوايا والمدارس، وتتجلى وظائفها العلمية والأكاديمية والإدارية في: (الكاتب والنقيب والمباشر... وغيرهم) كما اعتُمدت سلوكياتٌ تُنظم شؤون الحياة داخل المدارس للمعلمين والطلبة والعاملين فيها، الذين

حُدّدت لهم وظائف مثل: الخازن والمناول والمترجمين والمفهرسين والنساخ، كما أُلحق بالمؤسسة التعليمية وقف الحمامات ومرافق النظافة، وهو مصدرٌ لقوّة الدولة وتماسك المجتمعات بما خفّف عنها أعباء الخدمات.

الفصل الثالث: الوقف الإسلاميّ وإسهاماته في الحياة العلمية بالمدينة المنورة في العهد العثماني: تناولت الباحثة دراسة الوقف في العهد العثماني بكونه مؤسسة تنظيمية وإدارية مستثمرة في المدينة، فكانت الأوقاف تُدَار ضمن نظامٍ قانونيٍّ متكاملٍ، وقام العلماء والمثقّفون بإنشاء أوقافٍ تعليميةٍ قريبةٍ من المسجد النبويّ، لتمويل حلقات العلم والطلاب، فكان الموقوف على جنسٍ معيّن من المهاجرين المقيمين بالمدينة، وعلى طلاب العلم القادمين من بلدانٍ معيّنة، وشمل أيضًا المؤذنين والمدرّسين في المسجد النبويّ، وكذا إسكان الحجاج القادمين للعمرة والزيارة وغيرهم، كما خصّصت الدولة مرتبات لبعض الشيوخ الذين يُدرّسون في الحرم، وقد وُجدت أوقافٌ خاصّة أوقفها واقفوها على ذريتهم، وشرطوا بعد الانقراض أن يُصرف ريعها على العلماء والمدرسين في المسجد النبويّ، ومن تلك الأوقاف: وقف الحاج محمد بن علي، ووقف عمر بن علي التطواني، وغيرهم، وانتقلت الباحثة بعدها إلى نوعٍ آخر من المؤسسات الوقفية وهو الكتاتيب، وهي بمثابة التعليم الشعبيّ الذي أقبل عليه أهل المدينة، وإسهام الكتاب يختصّ بالتدرّج: القراءة والكتابة وحفظ القرآن، أما أماكن الكتاتيب فمنها ما المسجد النبويّ، ومنها بيوت الشيوخ والزوايا، وكانت تُصرف لهم رواتب من الأوقاف المخصصة لهم، ومن تلك الكتاتيب: الكتاتيب المجيدية وكتّاب لتعليم الصبيان في رباط عزت باشا، وكتّاب مدرسة الكشميري، وغيرها، ومن المؤسسات الوقفية أيضًا التي تناولتها الباحثة: الأربطة التي يعود إنشاؤها في المدينة المنورة إلى العصر العباسي، وكانت تضمّ مأوى للفقراء وطلاب العلم والعلماء، وذكرت الباحثة منها: رباط عزت باشا، ورباط قرة باش، ورباط الشفاء، ورباط عثمان بن عفان، ورباط العجم، ثم انتقلت إلى نوعٍ آخر من المؤسسات الوقفية، وهي الزوايا التي كانت مقرًا للشيوخ لاستقبال الطلاب، ومنها: زاوية السمان وزاوية القشاشي وزاوية بدر الدين العادلي وزاوية الجنيد وغيرها، وذكرت الباحثة:

مؤسسة الخوانق الوقفية، حيث عرفت المدينة المنورة الخانقاه في العهد العثمانيّ، ولكن باسم جديد هو: التكايا، وهي التي يُقيمها الأثرياء والأمراء لإسكان دراويش الصوفية للعبادة ودراسة العلوم الدينية، كما ذكرت المدارس التي أنشأها العثمانيون في المدينة، ومن العوامل التي أدت إلى كثرة ظهورها تعلّق المسلمين بالمدينة المنورة، ورغبة الزوار في تقديم خدماتهم لأبناء البلد، ومن تلك المدارس: مدرسة الساقزلي ومدرسة بشير آغا ومدرسة التركمان وغيرها. كما تحدثت الباحثة عن المكتبات، ومن ضمنها مكتبات المساجد والجوامع والأربطة والمدارس، وهي حصيلة ما أوقفه الملوك والعلماء.

الفصل الرابع: الوقف الإسلاميّ وإسهاماته في الحياة العلمية بالمدينة المنورة في العهد السعودي: بيّنت الباحثة في هذا الفصل كيف استمرّ أثر الوقف في دعم الحياة العلمية حتى في العصر الحديث، بعد تأسيس الدولة السعودية، وذلك باستمرار إنشاء أوقافٍ تعليميةٍ أو دعم مشروعاتٍ ثقافيةٍ. وإنشاء أوقاف العلماء في المسجد النبويّ، ولم يختلف إسهامها من حيث توفيرها مخصصاتٍ مالية للعلماء والمدرّسين، وكذا الانتفاع بها سكنًا وإسكانًا، أما الكتاتيب فتقلّص إسهامها في العهد السعودي مما ترتّب عليه قلّة الأوقاف عليها، ومن ثمّ ظهرت الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم، واعتمدت على تبرّعات أهل الخير، وعلى القليل من الأوقاف التي رصدت لها، مما أعجزها ماليًا، فدفع ذلك الجماعةَ لتشكيل لجنةٍ لدراسة أوقاف المدينة، وكانت الأربطة من المؤسسات الوقفية التي ذكرتها الباحثة أيضًا، والتي صار أثرها في العهد السعوديّ قاصرًا على إيواء الفقراء والأيتام، وممن انقطعت بهم السبل وفق شروط الواقف، أما الزوايا والخوانق فقد تلاشت في المدينة مع بداية العهد السعوديّ، وانقرضت نهائيًّا، لكونها مارست أثرًا صوفيًّا، مما جعل الدولة تتّخذ موقفًا صارمًا أمام تلك الزوايا فعملت على إغلاقها خشية تفشي البدع التي تتنافى مع العقيدة الإسلامية الصحيحة، كما تناولت الباحثة مؤسسة المدارس التي أوقفت في العهد العثمانيّ، واختفى بعضها في العهد السعوديّ، وبقي القليل منها توجّهت لتدريس القرآن الكريم، أما المدارس التي أقامها بعض الأهالي والمجاورين في بداية العهد السعوديّ، فقدّم الوقف أثرًا كبيرًا بتوفير مباني

للمـدارس، ومنحًا للطـلاب ورواتب للمدرسـين، إلـى أن انضمت بالتدريـج لجهاتٍ حكومية، ولذلك بدأت الأوقاف بالقصور، فقـلّ الوقف على المدارس، وصار التعليم من شـؤون الدولة. وبعدها تناولت الباحثة مؤسسـة المكتبات حيث أسهمت الأوقاف قبيل العهد السعوديّ في إنشاء كثير من المكتبات وإمدادها بالكتب والخدمات المكتبية، ثمّ تكفّلت الدولة بها، مما قلّل التبرعات لها اعتمادًا على الدولة، فأنشـأت في المدينة مكتبة المدينة المنورة.

الفصل الخامس: الهيئات العلمية والتعليميّة في المدينة المنورة وأثر الوقف فيها:
ذكرت الباحثة أنّ تنافس المسـلمين على الوقف منذ عصـر الصحابة ﷺ، أدّى إلى كثرة الأوقاف وقيام أجهزةٍ وتنظيماتٍ لإدارتها في العهد الأمويّ والعباسيّ والفاطميّ والمملوكيّ والعثمانيّ، وكان المسـجد النبـويّ مركزًا علميًّا فقـد بيّن البحث كيف أسهم الوقف في دعم برامج التعليم داخل المسجد النبوي، من حلقاتِ تعليم القرآن إلى الدراسات الشرعية، مما يبرز المسجد بكونه مؤسسةً علميةً قائمةً بذاتها مدعومة بالوقف. وتناولت بعدها أثر الوقف في تأسيس ودعم المكتبات ومراكز الدراسات، وأُنشـأت أوقـاف العلمـاء والمدرّسـين بالمسـجد النبويّ حيـث زادت قبـل العهد السـعوديّ عما هي عليه الآن، وكـذا الكتاتيب على تنوّعها، فمنها مـا كان وقفيًّا في المسجد النبويّ، ومنها غير الوقفيّ، ويتقاضى أجورًا محدّدةً من أولياء الأمور، كما ذكرت الباحثة الأربطة التي فاق عددها عدد المدارس فتنوّعت أسماؤها، وقد حوى بعضها خدماتٍ للرعاية الصحية، وكذا تحدثت عن المكتبات قبل العهد السعوديّ، وكان من أهمّهـا الكتب والمكتبـات الموقوفة على المسـجد النبـويّ، كما تناولت الباحثة مؤسسة المدارس، حيث اشـترطت بعض وقفيات المدارس أن تتوفر بعض الشـروط في الطلبة، كما حدّدت للعاملين مخصصات من غلّـة الوقف، مثل الناظر وشـيخ المدرسـة وأمين المكتبة والصراف وغيرهم، كما أوضحـت الباحثة حرص بعض الواقفين على توفير حصة من الغلة لصيانـة وتجديد الوقف، فخلص البحث إلى أنّ الأوقاف بالمدينة قسمان: ما هو تحت إشراف الوزارة، ومنها ما هو قائمٌ عليه نظار من المحكمة الشرعية.

أبرز النتائج والتوصيات:

خلصت الباحثة إلى أنّ الوقف الإسلاميّ كان أحد أبرز الدعائم الأساسية للحياة العلمية في المدينة المنوّرة على مرّ العصور، وأنّ إسهامه لم يكن أثرًا ثانويًّا أو تكميليًّا، بل مثّل ركيزةً رئيسةً في دعم التعليم الشرعيّ والعلميّ واستمراره. حيث أسهم الوقف في إيجاد بيئةٍ علميةٍ مستقرّةٍ مكّنت العلماء وطلاب العلم من التفرّغ للتحصيل والتعليم، بعيدةً عن ضغوط الكسب والمعاش.

وأظهرت النتائج أنّ تنوع الأوقاف وتعدّد مصارفها كان له أثرٌ بالغٌ في ازدهار الحركة العلمية؛ إذ شملت الأوقاف: أوقاف المدارس وأوقاف الربط وأوقاف الكتاتيب وأوقاف المكتبات، وكذا الأوقاف المخصّصة للعلماء وطلبة العلم، سواء في صورة رواتبَ أم إعاناتٍ عينيةٍ وغذائيةٍ. وقد ساعد هذا التنوع على استيعاب فئات المجتمع العلميّ، من كبار العلماء إلى طلاب العلم الوافدين إلى المدينة المنوّرة.

كما بيّنت الباحثة أنّ المدينة المنوّرة حظيت بعناية خاصّة من الواقفين؛ لما لها من مكانة دينية وعلمية، فكانت مقصدًا للأوقاف القادمة من داخل الحجاز وخارجه، بل حتى من أقاليمَ بعيدةٍ في العالم الإسلاميّ. وأسهم هذا الامتداد الجغرافيّ للأوقاف في تعزيز الاستقرار الماليّ للمؤسسات العلمية في المدينة، وضمان استمرارها على فتراتٍ طويلةٍ.

وأثبتت النتائج أيضًا أنّ الأوقاف كان لها إسهامٌ محوريٌّ في الحفاظ على الهوية العلمية للمدينة المنوّرة، خصوصًا في العلوم الشرعية وعلوم الحديث النبويّ، كما أسهمت في استمرار حلقات العلم في المسجد النبويّ ودعم العلماء المتخصصين في التدريس والإفتاء والقضاء. كما كان للوقف أثرٌ واضحٌ في حفظ الكتب ونشرها، من خلال المكتبات الوقفية التي كانت خزائنَ علميّةً مهمّةً.

وأشارت الباحثة كذلك إلى أنّ الأثر العلميّ للوقف لم يتوقّف عند العصور القديمة، بل استمرّ في العهد السعوديّ، وإن اختلفت صوره وأساليبه. فقد انتقلت بعض مهام الوقف إلى مؤسساتٍ رسميةٍ تُعنى بتنظيم شؤونه واستثمار أمواله، ممّا أسهم في حماية

الأوقاف من الضياع وسوء الإدارة، وإن كان ذلك قد صاحبه في بعض الأحيان تراجعٌ في المشاركة الفرديّة المباشرة في الوقف العلمي.

ومن النتائج المهمّة التي أبرزتها الباحثة أيضًا أنّ ضعف الوعي الوقفيّ في العصر الحديث وقلة ربط الوقف بالمجال العلميّ، أدّيا إلى انحسار بعض الدعم الوقفي التقليديّ، رغم الحاجة الماسّة إليه في ظلّ توسّع المؤسسات التعليمية وكثرة طلاب العلم.

كما أوصت الدراسة بضرورة إحياء مفهوم الوقف العلميّ وربطه بالحاجات المعاصرة للتعليم والبحث العلمي، مع الاستفادة من النماذج الوقفية التاريخية التي أثبتت نجاحها في المدينة المنوّرة. وأكّدت على أهمية إبراز الأثر الحضاري للوقف في دعم العلم، من خلال المناهج التعليمية والندوات ووسائل الإعلام.

كما أكّدت التوصيات على تشجيع الواقفين ورجال الأعمال على توجيه أوقافهم نحو المجال العلمي، وبخاصّة دعم طلاب العلم والباحثين والمراكز البحثية والمكتبات، بما يحقق التكامل بين الوقف والتنمية العلمية المستدامة.

ودعت الدراسة أيضًا إلى تطوير إدارة الأوقاف العلمية، باعتماد أساليبَ حديثةٍ في الاستثمار والإشراف، ممّا يضمن زيادة ريع الوقف واستمراره، مع المحافظة على شروط الواقفين ومقاصدهم الشرعيّة. كما أوصت بضرورة توثيق الأوقاف القديمة وحصرها ودراسة آثارها؛ حفاظًا عليها من الضياع أو الإهمال.

وأوصت الباحثة كذلك بتعزيز التعاون بين المؤسسات الوقفية والجامعات والمعاهد العلمية في المدينة المنوّرة، بما يسهم في توجيه موارد الوقف لخدمة البحث العلميّ، وتمويل المشروعات العلمية المتخصّصة في الدراسات الإسلامية والتاريخية.

ومن التوصيات المهمة – تقول الباحثة – التأكيد على إجراء المزيد من الدراسات العلمية المتخصّصة في مجال الوقف، ولا سيّما الوقف العلمي في المدينة المنوّرة، مع التركيز على المجالات التطبيقية والتقويمية، وربط الماضي بالحاضر.

واختُتِمت الدراسة بالتأكيد على أنّ إحياء الوقف العلميّ هو أحد أبرز الوسائل للحفاظ على المكانة العلمية للمدينة المنوّرة، واستمرار أثرها الرياديّ في نشر العلم الشرعيّ وخدمة السنة النبوية، بما ينسجم مع مقاصد الشريعة في نشر العلم وتحقيق النفع العام.

تعليق ختاميّ للبحث:

وفي ختام هذا البحث الذي تناولت فيه الباحثة أثر الوقف الإسلامي في الحياة العلمية بالمدينة المنوّرة، يتبيّن بوضوحٍ أنّ الوقف لم يكن مجرّد نظامٍ ماليٍّ أو صورة من صور البرّ والإحسان، بل كان مؤسسةً حضاريةً متكاملةً، أسهمت إسهامًا عميقًا في بناء العقل المسلم وصيانة العلم واستمراره عبر القرون. مثّل الوقف فيه أحد أبرز المرتكزات التي قامت عليها الحركة العلمية في المدينة المنوّرة، وأسهم في ترسيخ مكانتها بوصفها منارةً علميّةً ودينيةً يقصدها طلاب العلم من مختلف أنحاء العالم الإسلاميّ.

كما أظهرت الباحثة أنّ الوقف الإسلاميّ أدّى إسهامًا محوريًّا في تهيئة البيئة العلمية الملائمة، من خلال دعمه للعلماء وطلبة العلم وتوفيره للمؤسسات التعليمية المختلفة بحلقات العلم والمدارس والكتاتيب والمكتبات. وكان لهذا الدعم أثرٌ بالغٌ في تحقيق الاستقرار العلمي، إذ أتاح للعلماء التفرغ للتعليم والتأليف، ومكّن الطلاب من مواصلة طلب العلم دون أن تشغلهم هموم المعيشة أو تعوقهم قلة الموارد. ومن هنا تتجلّى عبقرية الوقف الإسلامي بوصفه نظامًا يجمع بين البعد الشرعيّ والاجتماعيّ والعلميّ.

كما يبرُز من خلال الدراسة أنّ المدينة المنوّرة حظيت بعنايةٍ وقفيةٍ خاصةٍ، نابعة من مكانتها الدينية العظيمة، وارتباطها الوثيق بسيرة النبي ﷺ وسنّته. وقد انعكس ذلك في كثرة الأوقاف الموجّهة إليها من داخل البلاد وخارجها، مما أسهم في تنوّع الموارد الوقفية واستمرار عطائها في حِقَبٍ تاريخية طويلة، حتى في أوقات الأزمات السياسية أو الاقتصادية. وهذا يدلّ على عمق الوعي الوقفي لدى المسلمين، وإدراكهم لأهمية دعم العلم في تلك البقعة المباركة.

كما أبرزت الباحثة أنّ الوقف لـم يقتصر على دعم التعليم التقليديّ فحسـب، بل أسهم أيضًا في حفظ التراث العلميّ، من خلال رعاية المكتبات الوقفية وصيانة الكتب والمخطوطات، مما ساعد على نقل المعرفة عبر الأجيال. كما أسهم الوقف في تعزيز العلوم الشرعية، ولا سيّما علوم الحديث والتفسير والفقه، التي ارتبطت تاريخيًا بالمدينة المنوّرة، وأسهمت في تشكيل هويتها العلمية المميّزة.

وفي المقابل يكشف البحث عن تحديات معاصرة تواجه الوقف العلمي، من أبرزها ضعف الوعي بأهميته في العصر الحديث، وتحوّل كثير من الأوقاف إلى مجالات خيرية عامة على حساب الدعم المباشر للعلم والتعليم. ورغم ما بذلته الدولة في تنظيم شؤون الأوقاف وحمايتها، تبقى الحاجة قائمةً إلى استثمار الإسهام المجتمعي للوقف، وإعادة ربطه بالمجال العلمي مما يتناسب مع متطلبات العصر.

وأخيرًا: هـذا البحث لا يقـف عند حـدود التأريـخ والتوثيق، بل يحمل رسـالةً واضحةً مفادهـا أنّ إحياء الوقف العلمي يمثل ضـرورةً حضاريةً، وليس مجرد خيارٍ تطوعيٍّ؛ فالوقف بما يحمله من قيم التكافل والاستدامة قادرٌ على الإسهام في تطوير التعليم ودعـم البحث العلمي وتعزيـز الهوية العلمية للمدينة المنوّرة، إذا ما أُحسـن توجيهه وإدارته.

وفي الختام، يمكن القول: إنّ الوقف الإسـلاميّ شـكّل عبر التاريخ رافدًا أساسـيًّا للحيـاة العلمية فـي المدينة المنوّرة، وأسـهم في حفظ رسـالتها العلمية ونشـرها. وإنّ اسـتلهام التجربة الوقفية التاريخيـة، وتوظيفها في إطـارٍ معاصرٍ واعٍ يُعيـد للوقف أثره الريـاديّ في خدمة العلم، ويضمن اسـتمرار إشـعاع المدينة المنوّرة بكونها منارةً علميةً وروحية للأمة الإسلامية جمعاء.

والحمد لله رب العالمين..